الحقائق العليا فى الحياة

(بقية المنشور على صفحة ١٩٢٤)

إن شوبنهاور قد كذب كذبة بلقاء ، وحرف خرقاء عبقريا ! حين زعم أن العالم معدوم لا وجود له إلا فى تصورات الانسان . وحين أسند المعى والهوج إلى « روح الوجود » وحين زعم أنها لم تدرك نفسها إلا فى عقل الانسان وشعوره ، ولذلك أراد أن يغيظها بتمرده عليها وترك ملذاته التى هى ملذاتها فى واقع فلسفته ... وكان الأولى بشجاعته هذه أن يقضى على جسمه جملة واحدة حتى يغلق باب المتاع الذى فيه أمام روح الوجود المتعطشة إلى إدراك نفسها فيه وتمتعها بذلك الادراك ...

إن أقل ما يجب عقلياً « لروح الوجود » وخالق هذا الكون العجيب أن يتصف بصفات الانسان العادى المتوسط المحترم بين الناس — بله السوبرمان — فكيف يسلبون المشيئة الغالبة على الكون الصفات الضرورية لبعض ما أوجدته ؟! كيف يعطى الخالق ما لا يملك هو من صفات التدبير ؟

مهما فلسف الانسان فلن يستطيع أن يهدم الايمان العام بحقيقة « السببية » البديهة المستقرة فى كل نفس إنسانية أو حيوانية استقرار وجود تلك النفس .

ومنذ عهد «طاليس» إلى الآن ما استطاع فيلسوف أن يهز فطرة الانسانية فى إيمانها بهذه الحقيقة وينتزعها من إلهامها؟ ولئن كان بعض الشذوذ والانحراف يحمل بعض المتأملين على الاعتقاد بأنه هدمها فى نفسه هو ، فلن يحكم العقل العام عليه إلا بالجنون!

إن الطفل حين يلتقم ثدى أمه لأول مرة بعد ولادته ليحس الشبع لأعظم مفحم لأكبر فيلسوف يهدم تلك الحقيقة ... بل إن إدراك البذرة للانبات فى الظلام والثرى الميلل لأدعى إلى اعتبار تلك الحقيقة من الالهامات الفطرية فى كل الكائنات الحية .

والذي يزعم نفسه عاقلاً قادراً على أن يحكم على « روح الوجود » بما يريد ثم هو فى الوقت نفسه يسلبه — عز وتعالى عما يصفون ! — قوة الحكم والتدبير والادراك فجزاؤه . . . ما جزاؤه ؟ إن اللغة تضيق عن نعت له يرضى غيظ السموات والأرض من دعواه ! جزاؤه أنه قال ما قال وذلك حسبه لعنة . .

« ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق »

« من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ »

فما بالك بمن يتكره بتاتاً أو يرميه بالطيش والهوج !

ومما يجب أن يلتفت إليه أن أجرأ الناس على الشك فى الخالق أو الالحاد فى ذاته وصفاته كان مبعث جرأتهم السكر والتخدير... والسكر نوعان كما بينا فى مقالنا « حنظل وتفاح » : سكر باللذة وسكر بالألم . وجرأة السكارى باللذة جرأة سطحية ، جرأة طيش وسخرية واندفاع كجرأة الخيام والنواسى . ولكن جرأة السكارى بالألم جرأة غيظ وحقد وعناد وتمرد وقنوط وتحد . وهؤلاء هم أثقل شراً وأكبر لعنة

فالمعرى وشوبنهاور ونيتشه غضبوا على الحياة ونظامها وأدمنوا الآلام ، وصاروا يناقشون الخالق مناقشة الند للند ... فلا الخير خيره ولا الشر شره كما رسمهما هو فى الطبيعة والشريعة وإنما الخير والشر ما يرسمون هم وأضرابهم

وقد أطفأ الأولان شعلة الحياة فى جسديهما ، ودعوا إلى إطفائها فى أجساد الناس جميعاً ، حتى تخرب الأرض وتفنى إنسانيتها

وماذا كانت تكون النتيجة لو أن الناس كلهم كانوا رهبان تمرد وعصيان كالمعرى وشوبنهاور ؟ وكأنى بالانسانية وقفت موقفهما قائلة للخالق : هاك الحياة التى أحييتنا مردودة عليك منطفئة الشعلة ! دونك الأرض بحيوانها وشجرها ومرافقها لا نريد . لا نريد ! وها نحن أولاء رهبان شر أيها الآله إلى أن نموت !

ولكن الانسانية التى فى فطرتها وإلهامها الايمان والطاعة والعبادة لا تنفك تطرد من حياتها هذه الدعايات الشاذة السامة كما يطرد أفرادها عن أجسادهم البثور والقروح والدمامل ، ولا تزال سامعة مصغية واعية لذلك الصوت الذى يدوى بهذه الكلمة: « يا معشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ! » . ولا تزال سائرة مأخوذة إلى غايتها فى سلاسل من الضرورات والرغائب . بل لا تزال جنان الحياة وأماسيها تنشد قائلة وهى سائرة على الطريق :

« وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هرباً »

« وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به ؛ فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً »

« ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا »

* * *

ما هي حدود الايمان فلسفياً ؟ إنها في رأيي هذه :

أنا إنسان صحا من غيبوبة عدم لا يعرف مبتداها ، فأدرك نفسه وفتح حواسه على ذلك البيت الهائل البديع : الدنيا ، فتساءل بما فيه من إبهام السببية البديهية : من خلقني هكذا بديعاً كامل الأدوات لحياتي في هذا البيت ؟

ثم تساءل : ومن خلق هذا البيت العجيب الهائل بأرضه وسمائه وهوائه ومائه وإنسانه وحيوانه ونباته وقوانينه الدائمة الصيانة له ؟

ثم تساءل : ومن أدخلني في هذا البيت من غير أن يستشيرني ؟

ثم تساءل : ومن سيخرجني من هذا البلد من غير إرادة مني كذلك ؟

تلك الأسئلة الأربعة هي أبواب الايمان بخالق . ومن بين الأجوبة عرف الانسان صفات هذا الخالق من وحدة وعلم وحكمة وقدرة وقهر وقدم وبقاء وإرادة وغيرها من الصفات ، ثم أحس الاعجاب بذلك الخالق المبدع ، ثم أحس الحب كل الحب له ، لأنه أكرمه ونعمه حين أخرجه من العدم وأسبغ عليه الحياة مع أدوات الاطلاع عليها ، ثم أدام الفكر فيه . ومن الحب والفكر نشأت العبادة ...

أما كنه ذات الخالق وزمانه ومكانه وشئونه وغاياته وأسرار صنعته ، فأولئك أمور يستطيع الانسان أن يدركها حين تستطيع النملة الصغيرة أن تدرك المحيط الهادي ! ولله المثل الأعلى ...

تلك هي حدود الايمان بخالق ، في تفكير بسيط متزن لا لجوء فيه إلى غيبيات وسحريات ، وإنما إلى مقدمات عقلية هي « قدر مشترك » في عقل الفيلسوف وعقل الفلاح ، والمتمدن والمتوحش وهي ما يمكن سلوكه من الطرق إلى تبيين جذور الايمان ، بالتفكير . ولا داعي بعد ذلك إلى ما لا يفهمه العقل العام المشترك بين زنوج إفريقية وأقزام الاسكيمو وفلاسفة الشرق والغرب . ولكن ما هو غرض الانسان ؟

ذلك سؤال يكاد يكون له قيمة الأسئلة الأولى عند كثير من الناس غير أن هناك فارقاً كبيراً بين قيمة الجواب عليه وقيم الأجوبة على الأسئلة الأربعة . ذلك لأن الجواب عليه متفرع من الأجوبة السابقة ولا يصح إلا إذا صحت هي . بل قد يكفي بعض العقول ويريحها من حيرتها أن تؤمن بالخالق وبالحياة الدنيا فقط ولو لم يكن هناك مصير آخر يحيا فيه الانسان . لأننا لا نستطيع أن نبحث في غايات الخالق لعجزنا عن ذلك البحث « وإنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً » « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون »

وتكفي الحياة والانعام بها على من خرج إليها وأحسها ، سواء كان على نعمى أو بؤسى ، وازعاً للايمان بالخالق وحبه والتقرب إليه . أما الحساب على الخير والشر ، فالخير جزاؤه فيه والشر جزاؤه فيه .

وهذه نزعة صوفية متطرفة تشذ عن العقل العام ، والقدر المشترك ولا تتحاكم إلى سنن الخالق وقوانينه في الفطرة ولا تطلب منه أن ينفذ ما كتبه على نفسه وقد « كتب ربكم على نفسه الرحمة : ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه »

ذلك استطراد لجأنا فيه إلى الاستشهاد بالقرآن مخالفين ما ابتغاه في بحثنا هذا الذي لا يستند إلا إلى التفكير وحده ، لأننا في منطقة تسليم وخير مطلق عن تلك النفوس التي ترى أن تفنى في إرادة الخالق « إيما الى جنة إيما إلى نار »

ونبعده من غير شيء من الهوى ولا النجا من ناره وعذابه

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه »

* * *

ونعود فنقول : إن كل ما في الأرض من قرائن يدل على أن الانسان هو المقصود بالخلقة فيها ، وما عداه فمخلوق له لينتفع به . وله من حياته الفكرية والنفسية ما يشعره بهذا القصد . فانها حياة سامية غاية السمو معقدة غاية التعقيد فيها جانب عظيم غير خاضع للحياة الحسية الأرضية ، ويكفي في سموها أنها حياة متيقظة لنفسها ومتيقظة للدنيا كلها باحثة عن أسرارها المخبوءة فيها وراء الأجرام والكثافات ، حالمة بصور علوية لكمالها هي وكمال الدنيا ، تزعم

أنها قادرة على تنقيح الطبيعة ، وإعادة الخلقة كلها على وجه آخر أكمل ! وقد وصلت بالفعل إلى بعض مفاتيح الطبيعة عن طريق العلم وهي تفكر الآن بجد للوصول إلى المفاتيح الأخرى ، وستصل

والقرآن يقول : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » وقد ابتدأت الآيات في عالم الآفاق وعالم الأنفس بأعاجيب ، فما بالك بما تنتهي إليه ؟ ويقول : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً » وتأمل في قوله « وظن أهلها أنهم قادرون عليها » فإذا عرفت أن « الظن » هو الأفق الذي تحت العلم والجزم مباشرة تبين لك مقدار ما ستصل إليه قدرة الانسان في الآباد الآتية حتى يتوهم أنه قادر على الأرض.

فهل من المعقول بعد تلك القيمة العظيمة للانسانية أن تمضي من الحياة كما تمضي الحشرات والبذور من غير مصير علوي يتحقق فيه القصد من حياتها الأرضية التي خلق فيها كل ما في الأرض ؟ إن سنة التطور والترقي التي يقول بها العلم الحالي تأبى التسليم بهذه الخاتمة الأليمة لتلك الحياة الانسانية الرفيعة ...

تقول بعض الفلسفات : إن الحل لهذه المشكلة هو في القول بالرجعة المستمرة إلى الأرض بالحياة في الأفراد الآتين من النوع . فالكمال الذي ينشده الأفراد ويحلمون به سيتحقق في النوع . وكأن الانسانية في خيال هؤلاء هي المثل الراحد في الأفراد . أما أجسام الأفراد فهي أثواب تنضوها الانسانية في الأجيال المتعاقبة وتلقيها جثثاً ميتة على طريقها إلى غايتها ...

ولكن في هذه الفلسفة إهداراً تاماً للفرد وارتداداً بالانسانية إلى أفق واطئ جداً هو أفق النبات والبذور ، دع عنك أفق الحيوان . ونظرة واحدة الى إخراج الأفراد من الأرحام بصور متعددة الوجوه وشكول مختلفة في العقول والنفوس — وهذا في الانسان فقط — تحملك على الجزم والاعتقاد بأن القصد في الطبيعة متوجه الى خلق الفرد بالذات وإحساسه على انفراد بالحياة التي فيه هو ، وأنه مخاطب وحده من « إرادة الحياة »

وإن هذه الفلسفة لتبث القنوط في الفرد لأنه يشعر معها كأنه مسمار في نعل الانسانية ! وإنها لتبث فيه الشرود والجموح في الحياة لأنه لا غاية فردية له من حياته ، ولا هو يدري الغاية من وجود الانسانية كلها ...

وإذا كانت الشيوعية لم ترضها الانسانية في الغايات الاقتصادية فتفنى فيها جهود الأفراد للمجموع فناء مطلقاً فكيف ترضاها في غايات الحياة ؟

وفي قنوط الأفراد وفي جموحهم دواع إلى خسة النفس ودناءتها وثورتها على الحياة بحيث لا يرجى للانسانية بعدها ترق ولا صلاح للحياة الجمعية .

الحق أن الفرد مقصود بالخلق ، مخاطب من واهب الحياة رأساً بما فيه من الادراك مراعى فيه تمييزه بصورته ونفسيته ليشعر بفرديته وغايته الأنانية أولا . والقدر المشترك الذي بينه وبين الانسانية لا يحمله مطلقاً على الاعتقاد بأنه فيها كبذرة في نوع من الشجر ، ولا كمسمار في نعل ، ولا هو يشبه أخاه كما يشبه الغراب الغراب ، والنملة النملة ... فالفروق بين أفراد الأنواع الأخرى فروق ضئيلة لا تكاد تميز في الصورة ولا في الادراك بخلاف الانسان فان تنوع صوره الظاهرة والباطنة أمر محير !

« وبعد » فاني لأتساءل دائما : ما الذي أوجد في نفوس الانسانية ذلك الشعور الثابت بأنها لا تفنى ولا تنتهي حياتها بدخولها المقبرة ؟ ولماذا لم تحملها إرادة الحياة ، على غير هذا الشعور لو أن الأمر كان غير ذلك ؟

ثم لماذا نجد في خيالنا صورة لحياة كاملة لا قيود فيها للجسم ولا للروح ؟ من أين لنا هذه الصورة ؟ إن كل شيء قد حظي بكماله في دنياه بغير نزوع منه إلى حياة أكمل . مما يدل على أنه قد خلق للحياة هنا فقط ، بخلاف الانسان فانه يشعر كأنه طير مقصوص الجناحين لا يزال يحلم بالجو الذي خلق ليعيش فيه .

وكيف يؤمن مثل « أديسون » أو « ماركوني » بأنه يفنى ذاك لا رجعة بعده بينما الأرض مملوءة بآثاره في الكشف والاختراع ؟

إن العلم يقول إن الأرض ستفنى بفناء الشمس أو انطفائها فأي بصير ما هنا من الفكر والعلم ؟ وماذا يفيد كمال النوع الانساني لو أن الحياة كانت للنوع لا للأفراد كما يقول نيتشه وأصحاب مذهب « الرجعة » ؟

ألا إن الموت « ولادة ثانية » كما يعبر الانجيل

هذا ولا يزال لحديث الآخرة بقية نرجئها الآن بعد ما طال الحديث ...

« الرستمية » عبد المنعم خلوف